المحاضرة الأولى: ماهية العلاجات ذات المنحى التحليلي (النفسديناميكي).

تمهيد:

تعتبر العلاجات النفسديناميكية وجها آخر من أوجه تطور الفكر النفسي التحليلي، و هي صيغة مرنة عنه و عن أتباعه بعده. ظهرت كموجة مؤخرا في الدول الأنجلوسكسونية تبعا للحركات الانتقادية للتحليل النفسي الكلاسيكي. تجمع بين عدة تقنيات و تطبيقات مرتبطة ببعض التصورات في التحليل النفسي و المعالج النفسديناميكي ليس متكون في التحليل النفسي بمعنى أنه ليس محلل نفسي، لكنه يتبنى هذه النظرية و يشاركها في عمله وتفكيره أي أنه يستخدم فرضيات و تصورات من النظرية التحليلية من أجل تحليل الوضعيات العيادية خاصة في تحليل الصراع النفسي و السيرورات اللاشعورية.

1- تعريف العلاجات النفسديناميكية:

هي متغيرات من العلاج النمطي la cure type و التي تأسست من جراء الاحتياجات الخاصة لعملاء الذين يعانون من أشكال متنوعة من الاضطرابات الخطيرة و المعقدة. تنقسم هذه العلاجات الى العلاجات طويلة الأمد long term psychodynamic psychotherapy و العلاجات المختصرة short term PP و العلاجات النفسديناميكية للأطفال. هذا التقسيم مرتبط بالاختلاف في الوقت و كذلك بالاختلاف بين احتياجات العملاء. تم تحديد عدة معايير لها و هي:

- القاعدة النظرية الأساسية لهذه العلاجات هي التحليل النفسي.
- يتمثل الهدف العلاجي في اكتساب الوعي و/أو تغيير في الشخصية.
- تتمثل التقنيات العلاجية بالأساس في التأويل و تحليل التحويل.
- تعمل هذه التقنيات على اكتشاف، توجيه، توضيح و تأويل الصراعات النفسية و الدفاعات و الغرائز و القلق.
- - ترتكز على مواجهة السلوكات الدفاعية و المشاعر التي تظهر خلال العلاقة العلاجية و بذه الطريقة يمكن الوعي بالذكريات المكبوتة و الأفكار التي تصاحبها داخل اطار عمل مندمج عاطفيا و فكريا.

حسب مجموعة Cochane يمكن تعريف العلاجات النفسديناميكية كجلسات علاجية منظمة مع معالج متمرس أو تحت الاشراف، يتم اجراء هذه الجلسات حسب النموذج النظري النفسديناميكي أو التحليلي و بالارتكاز على مجموعة من الاستراتيجيات أهمها: الاستكشاف و اكتساب الوعي، الدعم و التوجيه و المرونة التطبيقية. يمكن للمعالج النفسديناميكي تطبيق التقنيات بأقل صرامة لكن دائما في اطار التحويل.

2- التطور النظري و التطبيقي للتحليل النفسي:

مضى أكثر من قرن على مساهمة التحليل النفسي في العلاج النفسي و الطب العقلي و قد شهدت أوج تطوراتها بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ظهرت الكثير من المقاربات و النماذج العيادية المرتبطة بالعديد من المفاهيم السببية و الأساليب العلاجية التحليلية و تطورت عبر الوقت.

1-2 التحليل النفسي الكلاسيكي: ولد التحليل النفسي في نهاية القرن 19 بصدور المؤلفات المتتالية التالية: دراسات حول الهيستيريا (فرويد و بروير1899)، تأويل الأحلام (فرويد 1900)، علم النفس المرضي للحياة اليومية (فرويد 1901)، مقتطفات من تحليل الهيستيريا (فرويد 1905 و Bonaparte و آخرون في 1956). أشارت هذه المؤلفات الى أهمية الصراع النفسي الذي يحدث بين الدوافع الداخلية المتعارضة و الضمير، إضافة الى دور التاريخ الطفولي في حوث القلق و الأعراض. أضاف فرويد الى هذا المفهوم -التحليل النفسي الذي كان موجودا قبله في الكتابات الفلسفية و الأدبية خصوصا في القرنين 17 و 18- طريقة ملاحظة و استكشاف و يرتكز عليها العلاج كذلك. ظهر التحليل النفسي منذ البداية كوضف و تصور للحقيقة النفسية و للظروف التي يمكن أن تكون في بعض متغيراتها مصدرا للسيرورات المرضية.

يمكن اعتبار نظرية فرويد نظرية بيولوجية بالرغم من انها لم تحدد لنا البنيات الفزيولوجية المسؤولة عن الظواهر النفسية. افترض فرويد أن الفرد و وظائفه خاضعة لمتطلبات داخلية و خارجية تبحث عن حلول فيما وراء الوعي، و الى دوافع آلية للعضو و أن التنظيمات العقلية -وحتى العصبية- تكون قابلة لعادة التكوين خلال هذه السيرورة. يمكن أن تكون هذه المتطلبات متعارضة و تؤدي إما الى الحل أو الى الفشل على شكل عرض. يبدأ العلاج مباشرة من عناصر سابقة مستقاة من الملاحظة المشتركة، ينص العلاج عل تقديم مساعدة خارجية و وضع اطار منظم خاص يسمح بانفتاح الفكر و ظهور السمات الرئيسية و هذا باستعمل مجموعة من التقنيات النفسية. العلاج هو سردي و تأويلي بين المحلل و العميل يؤدي الى الوعي بالعناصر اللا شعورية و يرافق هذا الوعي خبرات جديدة في نوعية العلاقة مع الذات و الآخر (التحويل). يتدخل المحلل بإيجابية، بحيث يكون فكره و سلوكه متوافق مع ما يتلقاه من العميل، هذه الإيجابية تسمح له بتقدير كيف تعمل الغرائزو الميكانيزمات الدفاعية و الخيالات و الأعراض بتشكيل تنظيمات مرضية.

2-2 أتباع التحليل النفسي الكلاسيكي: بداية القرن العشرين ظهرت انشقاقات نظرية داخل التحليل النفسي، قادها تلاميذ فرويد ما أدى الى توسع الأفق التحليلي، فقد طور "كارل يونغ" علم النفس التحليلي/ مضيفا مفهوم اللاوعي الجمعي و النماذج الأصلية و مقللا من مركزية الدافع الجنسي، أما "ألفريد آدلر"، فقد أسس علم النفس الفردي مؤكدا على دور العوامل الاجتماعية و مشاعر النقص و السعي الى التفوق، بدل الصراع الغريزي. شكلت هذه الانشقاقات أول انتقال من التحليل الكلاسيكي الى فهم أوسع للديناميات النفسية.

3-2 علم النفس الأنا Ego Psychology : ظهر كتطور جديد للتحليل النفسي، مع منتصف القرن 20، على يد "آنا فرويد و هارتمان" خاصة، حيث لم يعد ينظر لل"أنا ego" كنتاج للصراع فقط إنما كجهاز يتمتع بوظائف تكيفية مستقلة نسبيا عن الهو و قدم "ايريكسون" تصورا تطوريا للشخصية عبر مراحل الحياة النفس-اجتماعية/ موسعا التحليل النفسي ليشمل النمو عبر دورة الحياة كاملة.

3-2 نظرية العلاقات الموضوعية Object Relations Theory: ظهرت في نفس السياق التاريخي تقريبا و التي مثلت تحولا جذريا في التفكير التحليلي، إذ انتقل الاهتمام من الدوافع الغريزية الى العلاقات المبكرة بالموضوع (موضع الحب الأولي) و التي تتمثل بالأساس في علاقة الأم بطفلهاو قد أسهمت أعمال "ميلاني كلاين و دونالد فينيكوت" خاصة في أظهار كيف تتشكل البنى النفسية الداخلية من خلال التفاعل العلائقي المبكر و كيف تؤثر هذه التمثلات الداخلية على العلاقات اللاحقة و على العلاقة العلاجية نفسها.

2-4 علم النفس الذاتSelf Psychology: ابتداءا من ستينيات القرن الماضي ظهر اتجاه جديد و هو الذي أسسه "هاينز كوهوت" حيث أعاد تعريف الاضطراب النفسي بوصفه خللا في تماسك الذات نتيجة إخفاقات عاطفية مبكرة، بدل اعتباره مجرد صراع غريزي، ركز كوهوت على مفاهيم مثل المرآة و الموضواع الذاتية و التعاطف العلاجي و كان لهذا التوجه أثر بالغ في تطوير أساليب علاجية أكثر حساسية للعلاقة العلاجية و الخبرة الذاتية للمريض.

2-5 العلاج النفسديناميكي: تطور التحليل النفسي مؤخرا الى ما يسمى بالعلاجات النفسديناميكية و هي مقاربات أكثر مرونة و أقصر زمنا من التحليل النفسي الكلاسيكي، مع احتفاظها بجوهره النظري. تركز هذه العلاجات على الأنماط العلائقية المتكررة، الديناميات اللاواعية، النقل و النقل المضاد و العلاقة العلاجية كأداة للتغيير و قد أثبتت فعاليتها في علاج الاكتئاب و اضطرابات القلق و اضطرابات الشخصية.

خلاصة:

ختاما يمكن القول أن التحليل النفسي لم يكن نظرية جامدة، بل مسارا تطوريا ديناميا انتقل من نموذج غريزي كلاسيكي الى مقاربات علائقية و تكاملية معاصرة، تجمع بين العمق النظري و الفعالية الاكلينيكية و لا يزال أحد الأعمدة الأساسية في علم النفس العيادي و العلاج النفسي الحديث.